المقاطعة بين الواجب الدينى والردع الدنيوى

بقلم: أ.د / محمد عبد الحليم عمر(*)

تعتبر المقاطعة من أهم الأسلحة فى الصراعات التى تقع بين الأمم والدول قديماً وحديثاً، وفى هذه الأيام وجدنا إجماعاً شعبياً على مقاطعة الدول التى أساءت صحفها وكتابها لسيدنا رسول الله ﷺ وفى هذه الكلمة نحاول التعرف على موقف الدين من هذه المقاطعة ونرصد آثارها مع محاولة لرسم صورة لها فى المستقبل حتى نؤدى واجبنا تجاه رسولنا الكريم ﷺ ونقدم دليلاً عملياً على محبتنا له، وسوف نوجز الكلام على كل ذلك فى الفقرات التالية:

أولاً : مفهوم المقاطعة وأهدافها وأنواعها.

ثانياً: المقاطعة فى الواقع العملى.

ثالثاً: الموقف الإسلامى من المقاطعة.

رابعاً: الحقائق والدروس المستفادة من المقاطعة التى قام بها المسلمون رداً على الاساءة للنبى الكريم ﷺ وكيفية تفعليها.

أولاً: مفهوم المقاطعة وأهدافها وأنواعها

أ - المقاطعة فى اللغة: من قطع وقطيعه، وهى الهجران والصدّ، وترك البر والإحسان. وفى الإصطلاح السياسى: عدم التعامل مع الغير - دولة أو فرداً اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً، أو هى إحدى وسائل الضغط الجماعى التى تقوم بها مجموعة لرد عدوان أو لتحقيق أهداف سياسية .

ب - أهداف المقاطعة: وتهدف المقاطعة بشكل عام إلى ما يلى:

(*) أستاذ للمحاسبة، مدير مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامى - جامعة الأزهر.

١ - تقليص أو الإجهـاز على الفوائد التى يحققـها الخصوم بالتعـامل معنا من أجل حرمانهم من المكاسب التى يحققونها نتيجة هذا التعامل

٢ - إجبار الخـصوم بالتوقف عن اعتـدائهم وردعهم عن التفكير فى مـحاولة تكرار هذا الاعتداء.

جـ- أنواع المقاطعة:

وتتعدد أنواع المقاطعة إلى:

١ - المقاطـعة الاقتـصادية: وتكون بوقـف الاستيـراد والتصـدير من وإلى الدولة أو شراء منتجاتها وعدم تبادل الخدمات مثل خدمات السفر والسياحة والخدمات الماليـة والنقل ومنـع تحـرك رؤوس الأمـوال والأيـدى العـاملـة ووقف المنح والتبرعات والقروض، وعقود الترخيص.

٢ - المقـاطعـة السيـاسـية، سـحب السـفـراء وتجمـد أو تعليق عـضـوية الدولة فى المنظمات.

٣ - المقاطعـة الاجتـماعيـة والثقافـية: مثـل منع الزواج بين مواطنى الدولتـين وكذا الاشتراك فى المؤتمرات الدولية والمحافل الرياضية والثقافية.

إلى غير ذلـك من صور المقاطعة التى تضـيق على الدولة المعتدية وتجعلهـا فى حالة زعزعة وتضر بمصالحها فى جميع المجالات.

ثانياً: المقاطعة فى الواقع العملى - التاريخ والمعاصرة -

المقـاطعة ليـست خروجـاً على الإنسـانية ولا هى دعـوة ينادى بهـا المسلمون فـقط ولكنها من أهم الأسلحـة التى تستخدم فـى الصراع مع الغير التى عـرفتها البـشرية على مدى التاريخ وحتى الآن ، نذكر نماذج منها فى الآتى:

أ - المقاطعة الشاملة التى قـام بها مشركوا مكة لرسول الله ﷺ وللمسلمين مـعه فيما هو

معروف فى كتب السيرة بخبر الصحيفة، ذلك أن قريشاً فى حربها للإسلام والمسلمين استخدمت كل الأسلحة ومنها المقاطعة لهم ولمن يحميهم من بنى هاشم وبنى عبد المطلب فكتبوا بذلك وثيقة تعاهداوا فيها أن لا يناكحوهم ولا يبيعوهم أو يبتاعوا منهم شيئاً ولا يدعوا سبباً من أسباب الرزق يصل إليهم ولا يقبلوا منهم صلحاً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يثنوا رسول الله (عن دعوته للدين الجديد وإجبار عشيرته بتسليمه لقريش، ووثقت قريش هذه المقاطعة فى صحيفة أودعوها جوف الكعبة، والتزم كفار قريش بهذه المقاطعة ثلاث سنوات اشتد فيها البلاء على الرسول ﷺ وعلى المسلمين ومن ناصرهم حتى أنهم لجأوا إلى أكل أوراق الشجر من شدة الجوع، إلى أن جاءت عناية الله عز وجل وانتهت المقاطعة وتم إخراج الصحيفة من جوف الكعبة فوجد أنها تآكلت ولم يسلم منها إلا الكلمات التى ذكر فيها اسم الله عز وجل.

ب- المقاطعة التى قام بها الزعيم الهندى غاندى فى بداية القرن العشرين بالامتناع عن استخدام أى سلع أو خدمات من إنجلترا التى كانت تحتل الهند، ولبى الشعب الهندى دعوته للمقاطعة وكان لها أثر كبير فى حصول الهند على استقلالها ولقد استخدم الزعيم المصرى سعد زغلول المقاطعة كأحد أساليب المقاومة للاستعمار الإنجليزى لمصر.

جـ - قيام الملك فيصل - رحمه الله - بالدعوة إلى وقف ضخ البترول خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣م إلى الغرب والذى كان أحد أهم الأسلحة التى سارعت بتحقيق النصر على إسرائيل.

د - المقاطعة العربية لإسرائيل ومن يناصرها التى بدأت جذورها عام ١٩٢٩م وتكرر تشكيل لجان المقاطعة بعد ذلك فى أعوام ١٩٣٦ - ١٩٣٧ ، ثم جاء عام ١٩٤٥ وتشكلت لجنة دائمة بموجب قرار مجلس الجامعة العربية تحولت عام ١٩٥١ إلى

مكتب دائم رئيسى مقره دمشق وله فروع فى جميع الدول العربية وفى عام ١٩٥٤م صاغت الجـامعـة العربيـة الإطار القانونى والتنظـيمى لهذه المـقاطعة وتضـامن مع العرب فى المقاطعة أكثر من ٢٥ دولة صديقة فى العالم مما زاد من عزلة إسرائيل.

ولقـد أوجعت هذه المـقاطعـة العـربية الرسـمـية الشـاملة إسـرائيل ومن يناصـرها من الشركات العالمية، قدرت فيها الخسائر الاقتصادية لإسرائيل بحوالى ٩٠ مليار دولار مما جعل الولايات المتحـدة الأمريكية (نصـيرة إسرائيل الأولى) تعـمل على ما يسمى لديهـا بتفكيك المقاطعة مستـغلة فى ذلك التحولات فى السياسة العالمية وصدور اتفـاقيات الجات وبدعوى وقف نشاط مكتب المقـاطعة لتهـيئة الأجـواء لمفاوضات السـلام بعد اتفاق أسلو، ولقـد أكد التـقرير السنوى لمكتب الـتجـارة الأمريكى الذى صـدر فى مارس ٢٠٠٠م نجـاح الولايات المتحدة فى تفكيك (هكذا بالنص) المقاطعـة العربية لإسرائيل وبذلك وتحت وطأة شدة الآثار التى وقعت على إسرائيـل من المقاطعة، تم تجميـد نشاط مكتب المقاطعة التابع لجـامعة الدول العربية والذى يواجـه صعوبة حتى فى عـقد مؤتمره نصف السنوى الذى يجرى تأجـيله تباعاً منذ اتفاق أسلو، وحتى بعـدما عادت الدعوة إلى المقاطعة رسـمياً فى قرارات اجتمـاع القمة العربيـة بشرم الشـيخ واجتـماع منظمـة المؤتمر الإسلامى فى قطر عـام ٢٠٠٠م نتيـجة تزايد الاعتداءات الإسرائيلية على الفلسطينيين، لم يتمكن مكتب المقـاطعة فى عقد اجتماع لتنفيذ هذا القرار حيث لم يستجب للدعوة سوى دولتين فقط

هـ- إن الولايات المتحدة الأمريكة تقود بنفسهـا عدة حملات للمقاطعة ضد الدول التى تأبى الدخـول فى نفوذها بعـد إنهيـار الاتحاد السـوفيـتى والمثال القـريب على ذلك المقاطعة التى قادتها ضد ليبيا والسودان والعراق وأخيراً التى تلوح بها ضد إيران.

كل ذلك يدل على أن المقاطعـة تمثل أحد الأسلحة الهامة فـى الصراعات بين الدول والجماعات، فهل الشريعة الإسلامية تجيز المقاطعة أم لا؟

هذا ما سنتعرف عليه فى الفقره التالية

ثالثاً: الموقف الإسلامي من المقاطعة

الأصل في العلاقات مع الآخر في الإسلام هو الاعتراف والتعارف والتعاون على البر والتقوى لقوله تعالى مخاطباً كل الناس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحجرات: ١٣] وأن لا يبدأ المسلمون اعتداء على الغير إلا رداً عدوان الغير عليهم حيث يقول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[البقرة: ١٩٠]، وبذلك فالجهاد في الإسلام شرع لرد العدوان وليس لابتداء الاعتداء، والجهاد درجات وأنواع منها الجهاد الإيجابي بالسلاح والجهاد بالكلمة الطيبة والجدال الحسن، ثم هناك الجهاد السلبي بمقاطعة الاعتداء وهي مشروعه يستدل عليها بالآتي:

أ - دعوة القرآن الكريم إلى عدم موالاة المعتدين حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩] فالتولي هنا معناه: النصرة والمحبة والود والبر، ومن النصرة المدُّ بأسباب القوة، والاقتصاد من أهم عناصر قوة الأمم، وبالتالي فالتعامل الاقتصادي مع الدول التي تعتدي على المسلمين يزيد اقتصادها قوة وينطوي على موالاة لهم، وهو منهي عنه بنص الآية الكريمة والقيام به ظلم.

ب - دعا القرآن إلى حصار الأعداء في قوله تعالى: ﴿وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾[التوبة: ٥]، وجاء في أحد وجوه تفسير ﴿ احْصُرُوهُمْ﴾ امنعوهم من التصرف إلى بلادكم والدخول عليكم.

جـ- عدم التعامل مع العدو تجارياً: وهو أمر اتفق عليه الفقهاء في المذاهب الأربعة حيث جاء: «ولا يجوز الاتجار مع الحربيين بما فيه تقوية لهم على المسلمين».

د – من جانـب آخر فإننا مـأمورون بعـدم مخـالطة من يسئ إلى الإسلام بالكـلام حيث يقول ربنا عز وجل : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[الأنعام:٦٨]، ويقول الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[النساء:١٤٠].

وهنا تجدر الإشارة إلى أنه فـى الموازنة بين ما تسببه المقـاطعة من خسائر اقـتصادية لنا وبين ضرورة المحـافظة على مقـدساتنا وديننا، فـإن القرآن الكريم أرشـدنا إلى أنه يجب تغليب ضرورة المحافظة عل الدين ويعوضنا بكرمه وفضله الخسائر الاقتصادية، وهذا ما يستفاد من الآية الكريـمة فى قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[التوبة:٢٨]، فها هم المسلمـون وقد خافوا بتحريم دخـول مكة على المشركين أن يفقدوا مورداً هاماً من الموارد التى كان يحضرها المـشركون للتجارة بمكة وخافوا العيلة، أى الفقر بسـبب ذلك، فطمأنهم ربُّنا عز وجل بأنه سوف يغنيهم من فـضله بما يعوضهم هذه الخسائر.

وهكذا يتضح أن المقاطعة مـشروعه إسلامياً لمن يعتـدى على المسلمين ويشتد ذلك إذا كان الاعتـداء على الرسول ﷺ كما حـدث أخيراً فى قضـية الرسوم الرديئة والمسـيئة للرسول ﷺ ولدين الإسلام وللمسلمين، وحسنا فـعل المسلمون عندما قاطعوا المنتجات الدنماركية، فلقـد أثبتت هذه المقاطعة جـدواها ومازالت، فما هى الدروس المستفادة من ذلك.

رابعاً: الحقائق والدروس المستفادة من المقاطعة التى قام بها المسلمون رداً على الإساءة للنبى الكريم

يمكن رصد أهم الدروس فى الآتى:

أ - أظهرت حملة المقاطعة مدى حب المسلمين للرسول الكريم ﷺ الذى يدل على صدق الإيمان ورسوخ العقيدة.

ب - أظهرت المقاطعة جدوى التحرك الشعبى الكامل الذى بدأ قبل أن تتحرك الأجهزة الرسمية.

جـ- أظهرت حملة المقاطعة مدى إمكانية توحد المسلمين فى جميع الدول حول قضية ما.

د - لأول مرة فى التاريخ الحديث يهتم الغرب بالمسلمين وبكلمتهم ، ففى كثير من المشكلات والقضايا التى تسئ إلى المسلمين عقدت اجتماعات للقمة على مستوى الرؤوساء صدرت قرارات تشجب هذه التصرفات المسيئة للمسلمين، ومع ذلك لم يلتفت الغرب أو المنظمات الدولية لها مما يدل على ذهاب ريح المسلمين بالتعبير القرآنى، أما فى قضية المقاطعة نتيجة الرسوم المسيئة للرسول (والتى قامت بها الشعوب الإسلامية، فإن الكل تنبه إلى خطر ذلك وبدأو يراجعون مواقفهم من الإسلام والمسلمين وعادت ريح المسلمين قوية مؤثرة نظراً لما ساندها من إجماع وتوحد للمسلمين فى وجه الحملة وصدق الله الكريم إذ يقول: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦].

هـ - لأول مرة يقدم الغربيون اعتذارات عن إساءة وجهة للمسلمين ويملئون بها صفحات الجرائد.

و - لقد أوجعت المقاطعة الاقتصاد الدنماركى رغم قوته، أما الادعاء بأن صادرات الدنمارك للعالم العربى ١,٧ مليار دولار فقط من حجم صادرات الدنمارك التى تبلغ ٧٦ مليار دولار، فينطوى على مغالطات عدة، لأن الأمر لا يقتصر فى التعامل

على السلع التى ترد من الدنمارك وإنما الكثير من هذه السلع ينتج بواسطة شركات دنماركية فى العالم العربى من خلال أسلوب الاستثمار المباشر، هذا فضلاً عن بيع حق الترخيص والاسم التجارى الذى يفوق أضعاف الواردات منها.

ز - للعلم فإن الاقتصاد الدنماركى يعتمد بالدرجة الأول على إنتاج السلع الغذائية وخاصة منتجات الألبان وعلى إنتاج وتسويق المواد الفنية الإباحية فهم أكبر منتجين لأفلام الجنس فى العالم ولا يوجد لديهم إنتاج سيارات أو معدات ولا إنتاج ملابس متميزة ولا أجهزة كهربائية، وبالتالى فإن الاستغناء عن التعامل معهم لا يضر اقتصادياتنا، وتوجد بدائل محلية ومن دول أخرى للسلع المستوردة منهم.

ح - يلزم تفعيل المقاطعة واستمرارها حتى يتحقق الردع الكافى لكل من تسول له نفسه الاعتداء على الرسول ﷺ وعلى الإسلام والمسلمين، فإذا كانت الاعتذارات - رغم عدم كفايتها- قد أظهرت اعترافهم بالخطأ فى حق الرسول ﷺ عن ما حدث، فإنه لضمان عدم حدوث ذلك مستقبلاً يلزم بيان قوة المسلمين ووحداتهم وذلك بإنشاء تنظيم شعبى على مستوى العالم الإسلامى موازياً للمنظمات الرسمية لمساندتها فى الدفاع عن الإسلام ومقدساته وأن يكون لهذا التنظيم الشعبى فروعه فى جميع أقاليم العالم الإسلامى ويتم التنسيق والتكامل بينهما.

ط - من جانب آخر فإنه يلزم العمل على توضيح صورة الإسلام السمحة وسيرة الرسول الكريم (من خلال وسائل الإعلام الحديثة وباللغات العالمية، واقترح فى هذا المجال ما يلى:

١ - إعادة طباعة ونشر الكتب والمقالات التى كتبها علماء ومفكرون غربيون عن الإسلام فى موضوعية وتجرد وهى كثيرة جداً.

٢ - شراء حق بث مواد تليفزيونية فى تليفزيونات العالم وشراء حق النشر فى صفحاته من جرائدهم واستقدام العلماء والمفكرون الغربيون المنصفون ليتحدثوا فيها عن الإسلام ومحاسنه، إلى جانب من أسلم من قادة الفكر

وكبار الساسة الغربيون وهم كثير الذين أسلموا ليحكوا عن «لماذا أسلموا».

ى - يلزم تكاتف الجهود رسمياً وشعبياً لإصدار اتفاقية من الأمم المتحدة بتحريم الاعتداء على المقدسات الدينية.

هذه نظرة سريعة بينا فيها معنى المقاطعة وفعاليتها وموقف الإسلام منها والدروس المستفادة منها، وهى فى نفس الوقت دعوة لاستمرار المقاطعة حتى يرتدع من يفكرون فى الاعتداء على الإسلام ومقدساته ويسود الاحترام المتبادل بين الشعوب.

والله الموفق،،

* * *